

في ظلال السيرة

ستظل السيرة النبوية - دائماً - مصدراً غنياً للمعرفة الإسلامية ، يستجلي فيه الباحثون مسيرة الإسلام في عهد النبوة ، ويتعرفون على معالم شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقفون على سلوك أصحابه ، رضي الله عنهم ، في التعلم منه ، وطاعته ، والثقة بما يقول ويفعل ، وفي مناقشتهم إياه ومراجعتهم له ، إذا رأوا فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه محلاً للمراجعة أو المناقشة . ويرون كيف يكون استمسك النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، بما أُوحي إليه ، فلا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ولا يأبه لقول أحد - كائناً من كان - وإنما يدل أصحابه ، برفق يليق به ، على أن الأمر مرجعه إلى الله وحده . وكيف كان يقبل النصيحة والمشورة من أصحابه عندما يكون الأمر رأياً رآه هو ، أو رآه بعض أصحابه وقبله الرسول منه ، فإذا اقترح عليه - عندئذ - أن ثمة ما هو أرفق بالناس ، أو أدنى لتحقيق مصلحة المسلمين العامة فإنه يعدل عن الرأي الذي رآه ، أو قبله أولاً ، ويأمر بخلافه ، لا يصد عنه ذلك ما يصد بعض الناس - في عصرنا - ومنهم حكام كبار ، وذوو جاه وسلطان ، عن الحق والرجوع إليه خشية أن يقول الناس

إن أحدهم نزل على رأي أصحابه أو رجع عن قوله إلى قول هو أحسن منه أثراً وأعدل نتيجة !

* * *

والذي يستعيد السيرة ، ويحيا في صحبة أحداثها ، يرى كيف تنزل القرآن مرتبطاً بالحياة الإسلامية الأولى ، وكيف كان تشريعه رفقاً بالناس ورفعاً للإصر والحرص عنهم ، وكيف كان الوحي يبشر المؤمنين فلا يقنطوا ، ويعددهم فيصدقوا ، ويفضح المنافقين فينكشف أمرهم ، ويثبت فؤاد رسول الله ومن معه فلا تذهب بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، المخاوف ولا تتلاعب به الأهواء ، ولا يعرف الشيطان إلى قلوبهم سبيلاً : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (الفرقان: ٣٢) . والتثبيت هنا له ولمن تبعه من المؤمنين عند نزول الوحي ، ولمن آمن به . واتبعه إلى يوم القيامة ، فإنك تقرأ الآية من التنزيل فتجد في نفسك لها من الأثر ما يخيل إليك معها أنها الآن أنزلت ، وفي شأنك الذي تعانيه نطقت ، ويردك لفظها إلى الله رداً جميلاً . وقد صدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال ، حين تلا أبو بكر رضي الله عنه ، قول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَكُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبَتْ عَلَى عَقِبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي

اللَّهُ الشَّكْرَيْنَ ﴿ (آل عمران: ١٤٤) وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ
مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠) قال عمر - وقد كان أنكر أن يقال إن
رسول الله قد مات - « فوالله كأنها ما أنزلت إلا الساعة !
وليس فيمن يعيشون مع القرآن ، ويرجعون إليه كلما حزبهم
أمر ، من لم يصادف مثل هذه الحال العُمرية ! ^(١)

* * *

والكتب المصنفة في السيرة النبوية لا تكاد تدخل تحت
حصر ^(٢) والمكتبة الإسلامية ، بل المكتبة البشرية في اللغات
كافة ، تستقبل كل يوم جديداً من المكتوب عن السيرة من
جوانبها كافة ، فإن الكتاب والقراء - أيضاً - كلٌ ميسرٌ
لما خُلِقَ له !

وقد عشت السيرة النبوية قارئاً ومتأملاً مرات كثيرة ،
فقرأت في صغري على أبي رحمه الله كتاب « سيرة ابن

(١) صحيح مسلم الحديث ٤٤٥٢ و ٤٤٥٣ ؛ وسبل الهدى والرشاد ،
ج ١٣ ، القاهرة ٢٠٠٦ ص ٤٨٦ .

(٢) انظر معجم ما أُلِفَ عن رسول الله ﷺ ، لصالح الدين المنجد ،
ط دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٨٢ ، لترى مبلغ الكثرة التي وقف عليها من
المؤلفات ، وهي كلها غيض من فيض وقطرة من بحر .

هشام» مع شرحه «الروض الأُنْف في شرح حديث السيرة النبوية لابن هشام» وهو من تأليف عبد الرحمن السهيلي ، ولا تزال في مكتبتي طبعته العتيقة التي قرأته منها ، أعود إليها أحياناً فأجد ريح أيام الطفولة بحلاوتها وبراءتها والظماً الذي لا يروى إلى المعرفة .

ثم عشت مراراً مع السيرة النبوية ، بطرق مختلفة ، في دروس شيوخني : العلامة الشيخ محمد الصادق عرجون شيخ علماء الإسكندرية ، والعالم الجليل الأستاذ المربي الشيخ منصور النمر ، والداعية الثابت الصابر الشجاع ، أحد أذكياء الدنيا ، الواعظ المدقق الشيخ إسماعيل حمدي ، والمعلم القدوة ، والداعية المعذب المحتسب ، الأستاذ موسى ابن عمران ، والعلامة الشيخ عبد الفتاح غفيفي ، والعالم السلفي الجليل ، التاجر الصدوق ، الشيخ محمد متولي عركز من جماعة أنصار السنة المحمدية بالإسكندرية، رحمهم الله جميعاً.

كان لكل منهم طريقته في التعبير عن حبه لرسول الله ﷺ ، واختياراته من روايات السيرة ، ومواطن اهتمام يركز عليها وموضوعات أو أحداث لا يحفل بها. وعن كلهم أخذت ،

ومنهم جميعاً تعلمت ، فجزاهم الله عني ، وعن سائر من انتفع
بعلمهم وعملهم ، خير ما جزى عالماً عن علمه وعمله .

وقرأت بعد ذلك وحدي ما استطاعت يدي أن تصل إليه
من كتب السيرة : مصادرها الأصلية القديمة ، وكتابات
المحدثين والمعاصرين من الهواة ومن المتخصصين جميعاً .
وقرأت أهم ما كتبه بالإنجليزية غير المسلمين من
المستشرقين ومن المؤرخين ، المنصفين الموضوعيين
والمتحاملين الشائنين على السواء .

ثم اقتضاني الحرص على أن تتصل الأسباب بين
أولادي وبين سيرة الرسول ﷺ أن أقرأ لهم السيرة مرتين :
أولاهما كانت في أثناء إقامتنا في الرياض ، عاصمة المملكة
العربية السعودية ، وكانت القراءة لابنتي الكبيرين فاطمة
وسلوى ، ومعهما ابنة أخي العزيز الأستاذ محمد الفاتح مدني
آمال وابنه حسن ، وهما من جيل ابنتي الكبيرين ، وأمهما هي
الابنة الثانية لأستاذي ومعلمي المستشار حسن العشماوي
رحمه الله ^(١) .

(١) تزوجت بعد وفاة أم أولادي ، الدكتورة أسمهان بكير ، ابنته الكبرى
أمانى ، وكان أبو أولادها الأخ العزيز الدكتور كمال حلمي قد توفي من قبل ،
رحمهما الله .

وكنـت في هـذه القـراءة أعـتمد - مع الروض الأنف - على السيرة كما رواها ابن سعد في أول الطبقات الكبرى ، وكما رواها ابن حزم في مختصر السيرة ، وكما كتبها شيخنا العلامة محمد الغزالي في فقه السيرة ، الذي خرّج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - رحمهما الله - وعلى السيرة كما كتبها العلامة الأستاذ أبو الحسن الندوي ، وكما كتبها الشيخ محمد أبو زهرة وكنـت أقرأ قراءة ناقدة ما كتبه الأستاذ محمد عزة دروزة عن السيرة النبوية مستخرجة من القرآن الكريم (!) وكنـت أعدُّ لكل يوم خميس - وهو اليوم الذي كنا نقرأ فيه - أوراقاً وملخصات وتعليقات أحاول بها أن أقرب المعاني إلى هذا الجمع من الصغار الأذكياء ، وأن أدخل بحقائق الحياة النبوية إلى قلوبهم وعقولهم معاً .

وأجمل ما أجد ذكريات تلك القراءة عندما يسألني أحد أولئك الأربعة عن أمر ويقول لي : « لقد قلته لنا ، أو علقت عليه وأنت تقرأ لنا السيرة في الرياض » ! لقد مضى على هذه القراءة ربع قرن أو يزيد ، وهي مع ذلك مؤثرة في أولئك الذين كانوا أطفالاً وأصبحوا اليوم آباء وأمّهات. فله الحمد والمنة !

والشيء الذي آسف له أن أوراقي وملخصاتي وتعليقاتي
قد فقدت ، في تنقلي بين البلاد ، فلم يبق عندي منها شيء .
وقد أنفق الساعات الطوال - الآن - في تحقيق رواية سبق أن
حققتها أو في محاولة العثور على قول نقلته بيدي من مصدره
ورويته لأولئك الصغار . ويعزيني عندئذ أنني أعاني مما عانى
منه كل من كتب عليه التنقل في بلاد الله وكتب له حب التعلم
والحرص عليه !

* * *

القراءة الثانية كانت بين سنتي ١٤١٩ و ١٤٢٠ الهجريتين
— ١٩٩٨ و ٢٠٠٠ الميلاديتين بدأت في شهر رجب ١٤١٩ —
نوفمبر ١٩٩٨ وانتهت في شهر ذي القعدة ١٤٢٠ - فبراير ٢٠٠٠ .

كانت في بيتنا في القاهرة ، وكان سببها أن الجيل الثاني
من أولادي - أحمد ومريم وعبد الرحمن - لم يكونوا استمعوا
إلى السيرة النبوية كاملة ، كما استمعت الابنتان الكبيرتان
فاطمة وسلوى . وأن زوجتي أماني العشماوي وقفت في
مكتبتي على نسخة من كتاب المقرئزي « إمتاع الأسماع
بما لرسول الله من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع » الذي
حقق السّفر الأول منه أستاذنا العلامة محمود شاكر ، رحمه

الله تعالى^(١) ، ففرحت به فرحاً عظيماً ورأت أنه خير ما نقرأ
منه السيرة النبوية للأبناء والبنات . واتسع حضور هذه القراءة
فكان يشاركنا فيها عدد من أصدقاء الأبناء وصديقات البنات
منهم - مع حفظ ألقابهم التي اكتسبوها من بعد وألقابهن -
سالي توفيق ومروة السيد والسيدة زهراء البدرائي والدكتور
حسين البرهموشي وأحمد البدرائي والشقيقان محمد وياسر
عبد البديع والشقيقان محمد وأحمد عبد المنجي وأكرم الجلا
وباسم حمدي وآمال مدني والسيدة فاتن القرمانني وابنتاها
نجوى وأمل العشماوي ومروة سلطان وحسن كمال ورباب
سري ورشا هاني .

حضر بعضهم بعض مجالس قراءتنا ، وحضر بعضهم
أكثرها ، وحضرها بعض منهم كاملة .

(١) صدرت له طبعة كاملة في ١٤ جزءاً عن دار الكتب العلمية بتحقيق محمد
عبد الحميد النميسي، بيروت ١٩٩٩ . وفي عنوانه اختلاف بين الطبعين، بل في كل
منهما. ففي طبعة شاكر، على الغلاف: (الأبناء والأموال) وفي صفحة (د) من مقدمة
الشيخ عبد الله الأنصاري رحمه الله (الأقوال) بدل (الأموال). وفي طبعة بيروت جاء
العنوان بلفظ (... بما للني من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع) وفي صفحة (٤)
من مقدمة الدكتور محمد جميل غازي ذكر ألفاظ (الأبناء والأحوال...) ولم يذكر
(الأموال) وقال العلامة الزركلي (الأعلام: ١/١٧٧). (... الأبناء...) والله أعلم
بحقيقة الاسم الذي سماه به صاحبه!

وكثيراً ما شاركنا مجلسنا أخونا العلامة اللغوي المحقق،
الطبيب ، الفقيه ، الكاتب ، الخطيب الأستاذ الدكتور محمد
هيثم الخياط نائب المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية
- ثم كبير المستشارين فيها بعد تقاعده - وعضو المجامع
اللغوية في سورية ومصر والأردن وغيرها وعضو مجلس أمناء
الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، فكان - إذا حضر - جعلت
القراءة له واستمعت مع المستمعين ، أو إن شئت الدقة ،
استمعت مع المستمعين .

وقد كنت أستعين في تحضير هذه القراءة بكتاب « سبل
الهدى والرشاد في سيرة خير العباد » لمحمد بن يوسف
الصالحى وبكتاب تهذيب السيرة النبوية لابن هشام الذي
صنعه العلامة الأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله ،
وبصحيحى البخارى ومسلم ، وبكتاب « الشفا في أحوال
المصطفى » للقاظمي عياض ، وبكتاب « صفحات من سيرة
المصطفى » لأستاذي الجليل المستشار عثمان حسين حفظه
الله تعالى ، وبكتاب زاد المعاد للعلامة ابن قيم الجوزية في
طبعته التي حققها الشيخان شعيب وعبد القادر الأرناؤوط
وصنع فهارسها الأستاذ محمد أديب الجادر .

* * *

والقراءة المتأملة للسيرة النبوية توقفك كلما كررتها
على جديد من المعاني لم يخطر لك على بال في قراءة
سابقة. وأنا لذلك أدعو الذين يحبون القراءة ، ويصبرون
عليها ، أن يجعلوا نصيباً من قراءتهم لمعاودة النظر في
السيرة النبوية حيناً بعد حين. وأنا زعيم لهم أن يجدوا في ذلك
من المتعة وتجدد المعرفة ما لا يجدونه في قراءة سواها من
تواريخ الأمم وتراجم العظماء .

* * *

وهذه الفصول التي أقدمها للقارئ عن « الحديبية » هي
ثمرة تلك القراءات العديدة ، والمعاشية المتكررة ، ثم هي
ثمرة الكتابة لصحيفة « الخليج » الإماراتية في رمضان
١٤٢٣ هـ - نوفمبر/ ديسمبر ٢٠٠٢ م . وقد نشر منها في
« الخليج » أربعة عشر فصلاً أولها « شوق ورؤيا صادقة »
وآخرها « أعظم فتح » . ولم ينشر - لسبب لا أعلمه ! - الفصل
الذي عنوانه: « مشورة امرأة أنقذت الصحابة » . وكتبت الفصول
الأخرى : « اختفاء الشجرة » و« معاهدة شارعة » و« حديث
الوحي » لتشر في هذا الكتاب قاصداً أن تكتمل بها قصة
الحديبية فصولاً وعبراً .

* * *